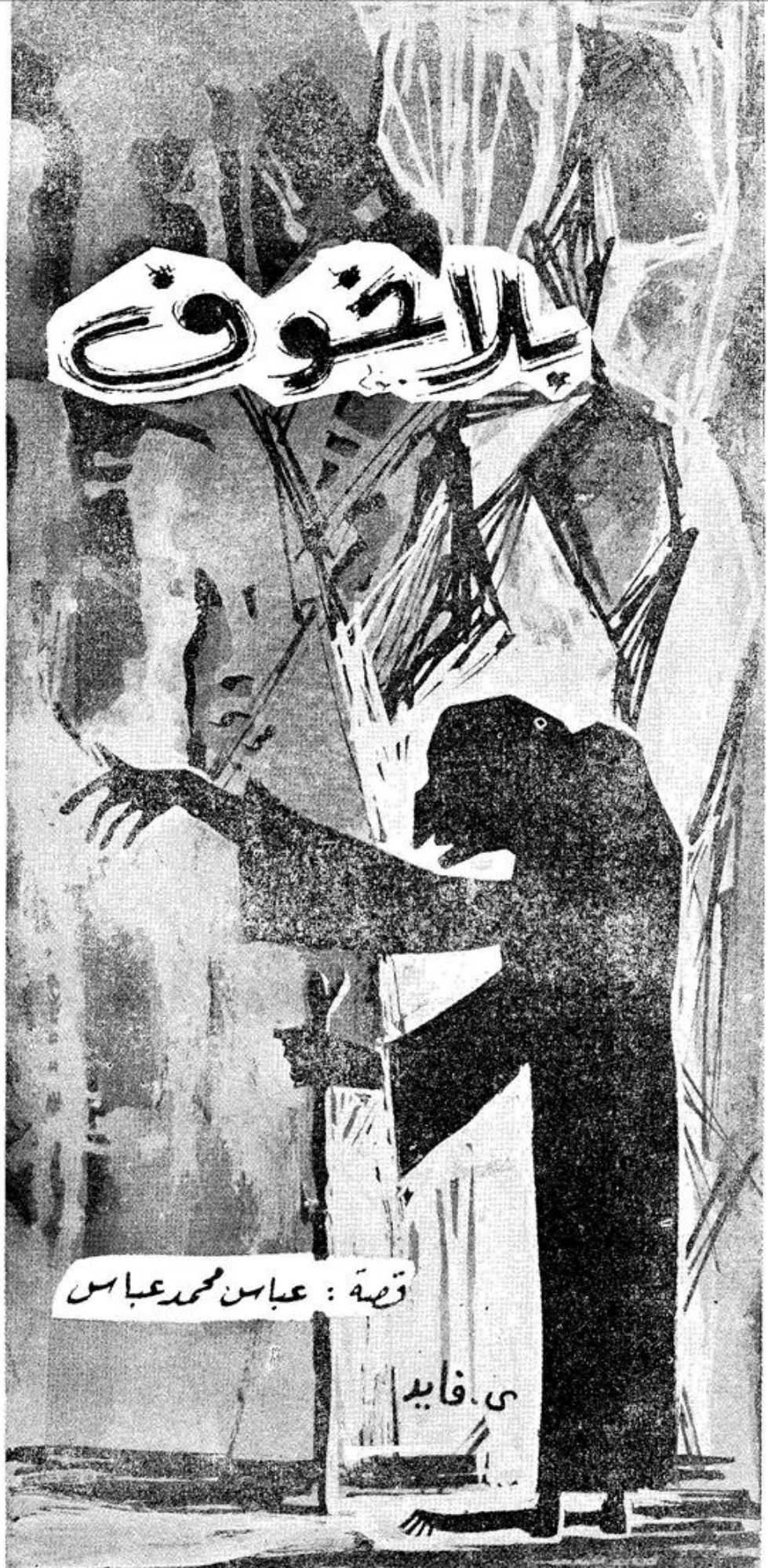
بلا خوف
قصة : عباس محمد عباس
ى. فايد

مازلت اذكره ..

حينما ملأ فمه بضحكة مخبولة وهو ينزع الطاقية بحركة عنيفة عن رأس الصبى المسكين ماسح الاحذية الذى ابتلع شتائمه حينما ابصر قدم «جمعه» الحافية تستقرعلى صندوقه الصغير.. وازداد الصمت انكماشا فى جلسته وهو يوزع نظراته الخائفة المستفيثة بين القدم المفلطحة العارية ، وبين الجالسين ـ غير بعيدين عنه ـ على قهوة المعلم حسونه .. ولعن الصمت الذى ساد الموقف اضجر جمعه فصرخ بلهجة متوعده :

ـ ياواد امسح الكاموش الربانى.. احسن لك

ولم يتحرك الصبى .. بينما عادت نظراته تتسكع بين وجوه الجالسين على المقهى تستجدى الانقاذ ..واخيرا تحرك احدهم .. جابر القهوجى .. قال بصوته المبحوح وهو يشخشخ القروش فى جيب مريلته القذرة :

ـ اسمع ياريس جمعه .. اديله القرش الاول وهو يوضب لك الجزمة.

وانطلق الصبى فجأة كصفارة الانذار :

ـ وهى فين الزفت .. الجزمة ؟

وانحنى القهوجى يصفعه على قفاه .. وقال مشيرا الى القدم المستقرة على الصندوق :

ـ امال دى ايه ياقفل ؟

وابتسم جمعه فى وقار .. وانطلقت من المقهى عدة ضحكات متباينة النغم بينما انفجرت فى وسطنا ـ نحن الصبية ـ قنبلة من الضجيج كنا نجيد تفجيرها .. **وهدأت** الاصوات حينما اخرج جمعه القرش اظهارا **لحسن** نواياه ، والقى به فى حجر الصبى وراح فى غطرسة مضحكة يدلى بالمواصفات:

ـ تلات خطوط بيض على وش الرجل .. والكعب بنى غامق ..

وانهمك الصبى فى عمله بينما كنا نراقب العملية فى نصف دائرة صغيرة قلقة القطر ، وكالعادة.. بدأنا نعاكس جمعه بالشتائم والحصى .. وكعادته أيضا من صد الهجوم بدأ فى ارهابنا بأن يتظاهر بأنه على وشك الامساك بنا فنفر فى كل اتجاه بفزع حقيقى وصراخنا المذعور يضاعف قدرتنا على الهرب ، لاننا كنا جميعا نخشاه . فالواحد منا كان يفضل الف مرة ان يبيت ليلة كاملة وبمفرده بين المقابرعلى ان يقع ولو لدقيقة واحدة فى قبضة جمعه الذى كان يحلو لنا ان نسميه «جمعه السكران» لكثرة ماكنا نراه مترنحا «سكران طينه» لايكاد يفيق من تأثير الكحول الردىء .. وكنا ننتظره كل يوم تقريبا امام نصار البقال حينما يخرج بقامته المديدة وبشرته السمراء وشعره المفلفل ونظراته الفسفورية ، يضم بين يديه بحرص بالغ «كوزا» من الصفيح امتلأ بالسبرتو الأحمر .. ذلك الصنف الوحيد الذى كان يتعامل معه باستمرار دون عائلة الخمور كلها .. وكانت الزفة تبدأ من هنا .. هو يسب ويلعن ويخوفنا .. ونحن نعاكس ونشتم ونفر .. وتستمر الزفة خلال الازقة حتى نصبح خارج الحى ، وحينما تلوح لنا الخرابة التى يأوى اليها جمعه كنا نبدأ فى التقهقر وملء ادمغتنا هذه الاساطير المرعبة التى

نفنن خيالنا الطفل فى غزلها من مظاهر حياته الشاذة .. وانتهى الصبى من «**الكاموش الربانى**» ... وبدأت الزفه المعتادة بتصفيق ماجن بداه جابر القهوجى حينما انزل جمعه قدمه من على الصندوق وكأنه ملك يهبط عن عرشه ... وتتبعناه بضجيجنا حتى المنطقة الحرام .. ووقف قريبا من الخرابة مائلا كبرج بيزا يتوعدنا .. وهنا حدث مالم اكن اتوقعه .. الولد حزين .. اكبر الجوقة سنا واثقلها ظلا على نفسى ضرب بمناى القابضة على الكرة الشراب ـ التى تعبت فى حشوها طوال امس ـ ففرت من يدى واختارت مكانها بخبث فى منتصف المسافة التى تفصل بيننا وبين جمعه السكران .. وشعرت بالغضب والحزن ولكننى اعتقلت ثورتى داخل نفسى فقد كنت اعلم مقدما النتيجة لو اننى اشتبكت مع حزين «خنزير الفرقة» .. وتناثرت حولى الكلمات : «**راحت عليك ياكابتن .. يبقى ابوك جدع لو تقدر تجيبها .. يابنى سيبه ده يخاف من خياله**» .. كل هذا لم يثر طبيعتى الحامية بقدر ماآلمتنى الفرصة التى اوشكت ان تضيع . فقد كنا سنلعب «فرقه» فى اليوم التالى وكونى صاحب الكره يعطينى حق «الفيتو» لارضى به نزعة «الفلس» التى اشتهرت بها .. وبالرغم من خوفى الشديد قررت ان اتحرك .. بل وتحركت بالفعل .. نقلت قدمى خطوة .. فثانية .. فثالثة .. كل هذا وجمعه مازال يقلد برج بيزا .. والشلة توقفت تماما عن الضجيج وحكم المكان صمت نموذجى وأنا أتحرك خطوتى الأخيره ... وانحنيت على الكرة .. وفجأة .. اندفع جمعه تجاهى بسرعة جمدت الدم فى عروقى فلم أستطع أن أتحرك مليمترا واحدا .. بينما انطلقت الفرقة بكاملها تجرى فى كل اتجاه وصراخها المذعور يوقظ اهل الكهف كأنها عصافير تطردها عن أعشاشها بندقية صياد .. وفى لحظة رهيبة ، صاعقة الخوف وجدت يدى سجينة فى كف جمعه السكران .. واعتقدت انه سوف يسلخنى ويجعل من لحمى مزه .. واستبعدتنى رعشة عنيفة متصلة ويدى الصغيرة غارقة فى كفه الكبير اللزج .. ومضت لحظات دوت على اثرها احدى ضحكاته المخبولة التى بدت لى كأنها دمدمة بركان يوشك أن يلفظ أحشاءه .. وغرز أصابعه فى كتفى بعد أن اعتق يدى وقال فى خشونة هامسة :

ـ جدع اللى مهربتش زيهم .. أنا احب الجدعان .. جدع والله فى زمن قلت فيه الجدعان ..

وقبل ان اتمكن من هضم كلماته شدنى من يدى الى الخرابة قائلا :

ـ انت من النهاردة صاحبى وأخويا

وشردت منى نظرة نحو الشلة وهو يجرنى خلفه ، وكانت حصيلة هذه النظرة اننى قد أصبحت بطلا يمكننى أن أتصدر ـ ولعدة أيام ـ ندوة «الدجل» التى كنا نعقدها فى الأمسيات الجميلة على ناصية الحاره . وطرد الزهو الرعدة عن جسدى ونجحت فى أن اجعل خوفى مستترا وهو يجلسنى قبالته على حجر كبير بينما افترش هو الأرض مسندا ظهره الى سور مدفن اليهود الذى يحتضن الخرابة من

احدى جهاتها .. واشعل النار بين قالبين من الطوب الاحمر ووضع عليهما «كوزا» يضم تشكيلة غريبة من نفايات الطعام يستعملها كمزة .. وبفرع شجرة قذر اخذ يقلب مزته ، وحينما بدأت الابخرة الكريهةتتصاعد منها راح يلقى فى جوفه بالسبرتو فى تهم ولذة .. وقال وعلى شفتيه تلعلع ابتسامة شبه مهذبة .

ـ قوللى .. انت بتروح المدرسة ؟

ـ ايوه ..

ـ يابختك !

قالها فى نبرة تعصرها الحسرة .. وتضايقت .. فأى شىء فى المدرسة يحسدني عليه هذا السكير ..انه لايعرف تريقة مدرس الحساب واصفاره .. ولا خيزرانة هنداوى افندى مدرس الالعاب .. واوشكتان ابوح له بكل قرفى المدرسى ولكننى لم افعل لانه اغمض عينيه واسند راسه على سور المدفن وقال بعد فترةصمت وهو يعبث بالكوز فى يده :

ـ ياسلام ع الدنيا .. خلاص كنت حشتغل فى البنك .. البس البدلة الصفرا والزراير النحاس .. وبعدين يجى ابن الكلب الخواجه يقوللى : تعرف تكتبى اسمك ؟ قلت له : لأ .. قاللى : «انتى موش ينفع» ... ابن الكلب يجى من بلدهم يركب عربية ويعمل مدير ويقوللى انا .. انتىموش ينفع .

وتمدد بيننا ـ بعض الوقت ـ صمت مريب القسمات .. وابصرت انسانى عينيه وهما يتألقان كخرزتى الفسفور حينما ضغط ذراعى وقال :

ـ انت بتعرف تكتب وتقرا ؟

وهاننى سـؤاله الغبى .. فكيف لااعرف وانا «الفة» ثالثة رابع وبعـد عام آخر سوف احصل على شـهادة «قد الدنيـا» اسمها الابتدائية تنوى امى ان تعلقها فى اطار الى جوار صورة ابى .. وتجملت بالصبر وانا اجيبه :

ـ طبعا

قال ونظراته تضاعف لمعانها كأنمـا ابهرها رؤية كنز من اللآلىء :

ـ خلاص .. علمنى

ولم اجـد ماقوله .. ويبدو ان صمتى اصابه بخيبة امل .. فهمس فى استجداء اربكنى :

ـ علمنى .. واذا غلطت اضربنى

اضرب جمعه السكران ؟! اى جنون هذا ؟! واستطعت بصـعوبة ان اجمع على لسانى حروف كلمة «موافق».. وابتسمت كل ملامح وجهه وانتصب واقفـا بحيوية غـريبة عنه وكأنه لم

«يطفح» منذ قليل كل هذا السم .. وبسرعة كسر احد قالبى الطوب الاحمر وقدم لى «شـافة» منه .. وفى جـزء مازال بياضه متماسكا من سور المدفن كانت سبورتنا .. وكتبت صـفا من الحـروف الهجـائية وبدأت انطق له

الحرف فيردده خلفى بحذر من يتحاشى الخطأ .. واعطيته القلم الحجرى لكى يتعلم رسم الحروف ..

وكان كلما انتهى من حرف تراجع الى الوراء قليلا لكى يرى مدى توفيقه على بعد مناسب وكأنه فنان يضع الرتوش الأخيرة فى لوحته .. والحقيقة ان منظره كان بديعا .. طرف لسانه مكور بين شفتيه .. وفى نظراته انبهار منفعل .. وفى حركاته فرحة وطيش.

وحينما بدأ يعالج حرف الحاء انفجرت خلفنا ضحكة مباغتة جعلت جمعه يلوى رأسه فى حدة وقلق واستطلاع .. وكان صاحب هذه الضحكة عم ابراهيم حارس المدفن الذى وقف بكرشه الكروى ومنظره الكاريكاتيرى يخبط كفا على كف ، وحينما أنهكه الضحك بدأت الكلمات تنهمر من فمه كأمطار المناطق الاستوائية :

ـ يخرب بيتك ياجمعه .. عايز تتعلم .. آدى اللى ناقص الحمير اللى زيك كمان تتعلم يا عالم الحقونى .. انت مجنون .. انت .. انت .. انت.

وبدا ان عم ابراهيم لم يكن يفكر فى السكوت .. وشعرت بالرعب يدق اعصابى من جديد حينما ابصرت جمعة يتحول الى وحش حقيقى وهو يهجم على عم ابراهيم .. ويركله ويعضه ويبصق عليه بحركات هستيرية .. وعم ابراهيم يصرخ ويصرخ حتى حضرت كلابه التى تشاركه حراسة المدفن وتدخلت الى جانبه فى المعركة .. وتحلقت الكلاب جمعة تعقره من كل ناحية .. كان المنظر رهيبا .. الكلاب تنبح وتعقر .. وجمعة يقاوم ويصرخ ودمه يسيل، وملابسه تتمزق وعلى الطريق الاسفلت الذى يحد الخرابة من الناحية الاخرى ، اوقف عربجى حنطور عربته وحضر يجرى بسوطه وكلماته الجزعة تسبقه :

((ياجدعان عيب .. صاواع النبى امال))

.. واستطاع ان يقنع عم ابراهيم بكرشه وكلابه .. وذهب العربجى بعربته وسوطه .. حتى الشلة لم اجد لها اثرا .. وبقيت انا وجمعه والصمت .. وانكمش جمعه الى جوار السور وقد لطخ الدم جسده فى اكثر من موضع واخذ يخبط رأسه برتابة ولين فى سور المدفن المتآكل وهو يتمتم :

ـ ليه ماتعلمش ؟ هو انا مش بنى آدم ؟ يعنى بس لو كنت اعرف اكتب اسمى ؟ كنت لبست البدلة الصفرا.. والزرايير النحاس على الاقل .. مش كده ؟

ورفع وجهه نحوى .. كانت فى عينيه دموع .. جمعه السكران يبكى! .. من الممكن ان اصدق اى شىء .. اى شىء الا هذا .. وكما يذوب الجليد تحت اشعة الشمس ذابت الاسطورة فى داخلى وانا اراقب خرزتى الفسفور وهما تفرقان وسط دموع عادية كتلك التى اراها فى عينى اخى الصغير .. وفجأة برزت الشلة ووسطها ابى جاءوا به لينقذنى من جمعه السكران .. وذهبت معهم .. ضربنى ابى فى البيت حتى لااذهب مرة أخرى ناحية الخرابة .. وجلست امى تحدثنى مايقرب من الساعة عن العفاريت التى تسكن جسد جمعه .. وبالرغم من اننى لم اجلس مع جمعه فى الخرابة مرة اخرى الا اننى فى صباح اليوم التالى .. وكل صباح كنت اتعمد ـ وانا فى طريقى الى المدرسة ـ ان امر من الشارع الاسفلت المجاور للخرابة لكى القى اليه من بعيد بالتحية .. وبلا خوف .

عباس محمد عباس